الصـــليب

الشاعر لامرتين

بقلم الأستاذ محمد أنور ولاية

«مات ألفير فى ١٨ ديسمبر ١٨١٧ وهى جوليا فى قصته رفائيل بعد أن عانت آلاماً مبرحة وقد حمل أحد أصدقاء لامرتين إليه من التى كان يحبها الصليب الذى كانت ممسكة به ساعة النزع . فنظم هذه الأبيات بعد مضى عام . ولكنها لم تنشر إلا فى عام ١٨٢٣ فى مؤلفه (التأملات الثانية) ، وربما أدخل عليها الشاعر فى تلك المدة بعض التعديل كعادته »

أنتَ الذى التقطتك من فوق فمها وهى تكابد غصص الموت ،
فى ساعة الوداع وهى تلفظ النفس الأخير
إنك رمز قدسى لصورة الإلـه ، ومنحة من يدها وهى تفارق الحياة

* * *

كم دمعة ذرفتْها تحت قدميك اللتين أعيدهما ،
ومنذ الساعة المقدسة قد تسلمتك يداى المرتعشتان
وأنت ما تزال دافئاً من نفسها الأخير ، المنبعث من أحشاء هذه الشهيدة .

* * *

كانت المشاعل المقدسة ترسل شعلة أخيرة ،
وكان القس يتمتم بأغانى الموت العذبة ، الشبيهة بتلك الأغانى ذوات الأنين المؤثر التى ترددها المرأة للطفل المسترسل فى النوم .

* * *

لقد انطبع على جبينها أثر ذلك الأمل ، المنطوى على الورع والتقوى .
وعلى أساريرها التى بدت فى جمال رائع ،
طبع الألم الهارب بهاءه والموت جلاله .

* * *

وهذه الريح التى كانت تداعب جدائل شعرها ،
كانت تكشف لى عن محياها آناً وتحجبه آناً ،
كما تموج ظلال شجر السرو السوداء على قبر ناصع البياض .

* * *

كانت إحدى ذراعيها متدلية من فراش الموت ،
والأخرى منثنية على قلبها بتراخ كأنها ما زالت تبحث عن صورة المنقذ لتضمها إلى فمها .

* * *

فتحت فاها لتعانقه ثانية ،
ولكن روحها ولت الأدبار وهى تطبع عليه هذه القبلة الإلهية كالعطر الرقيق المنبعث من البخور الذى تلتهمه النيران قبل أن يتأجج .

* * *

والآن هدأ كل شىء على فمها .
وأخلد النفس إلى السكون فى أحشائها الهامدة .
وعلى عينيها اللتين خبا بريقهما أسبلت جفنيها حتى أضحتا مغمضتين نصف إغماض .

* * *

تملكنى فزع لا أعرف كنهه حين كنت ماثلاً أمامها ،
وكنت لا أجسر على الاقتراب من هذا التراث المعبود
كنت لا أجسر . . . ! ولكن أنصت الكاهن إلى سكونى وأمسك بيديه المتلجتين الصليب وصاح بى :
« هو ذا التذكار . هو ذا الرجاء . خذه يا بنى . . . ! »

* * *

نعم ستبقى لى أيها الإرث المحزن .
منذ ذلك اليوم بدلّت الشجرة التى زرعتُها على قبرك ورقاتها سبع مرات ولكنك لم تهجرنى .

* * *

كنت قائماً إلى جانب هذا القلب وا أسفاه حيث كل شىء سائر إلى الزوال

فحميتها من النسيان على مر الزمن .

وطبعت عيناى وهما تذرفان القطرة تلو القطرة أثرهما على العاج الذى لان .

* * *

يا من باحت إليه الروح المدبرة بسرها الأخير

تعال . وتربع علي قلبي وتكلم أيضاً وبثنى حديثها لك عند ما أصبح صوتها الضعيف لا يصل إلا إلى مسامعك .

* * *

وفى هذه الساعة المريبة حيث النفس خاشعة ، وهى تتوارى تحت النقاب الذى يبدو كثيفاً لأعيننا ، خارج نطاق حواسنا المثلجة ، تنكمش رويداً رويداً غير منصتة إلى الوداع الأخير

* * *

وبينما هى على نهاية الحياة فى انتظار الموت كالثمرة التى تنفصل من الفرع لثقلها

ترتعش روحنا المعلقة عند كل زفرة على ظلام القبر

* * *

وحين تكف أغانى وتنهدات النشيد المضطرب عن إيقاظ عقلنا النائم

إذا بك ملتصق على الشفاه فى ساعة النزع كآخر صديق

* * *

إنك تعرفين كيف تموتين ، وأن دموعك الإلهية التى ذرفتها فى تلك الليلة المخيفة ، حيث كنت تصلين عبثاً ، قد روت شجرة الزيتون المقدسة من المساء إلى الفجر

* * *

وعند ما ألقت عيناك نظرة على الصليب لتسبر غور هذا السر العظيم

رأيت أمك تجهش بالبكاء والطبيعة تلبس الحداد

لقد فارقتِ أصدقاءك على الأرض كما هجرت جسدك فى القبر

* * *

سأبحث عن الموضع الذى زفر عليه فمها منك وداعها الأخير وهى تسلم الروح

لعل نفسها تُقبل لهداية نفسى الهائمة فى حب إله واحد

* * *

ألا من حبيب يلبس الحداد يلتقط الإرث المقدس من فوق فمى وأنا على فراش الموت وقد اعترانى الاكتئاب والهدوء معاً كملاك مولّه الفؤاد

فيسدد خطواته ويأتنس به فى ساعته الأخيرة

فتنتقل تلك الوديعة المقدسة المنطوية على الحب والأمل من المرتحل إلى المقيم ؛

وهكذا دواليك

* * *

إلى أن يأتى يوم تخترق فيه الأموات القبة المظلمة

يناديها صوت من السماء سبع مرات

فيوقظ هؤلاء الذين ينامون فى ظل الصليب الأبدى

(الأسكندرية) محمد أنور رياية

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٢٠ قرشاً ، و ٢٠ قرشاً عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد .